مقدمة

حتى بعد وفاة ستيف جوبز، الشريك المؤسس لشركة آبل إنك. .Apple Inc، والرجل الذي عرفه العالم بوصفه العقل المبدع وراء أجهزة آي ماك، وآي بود، وآي فون، وآي باد، ظل الناس منقسمين حوله. فقد كان في رأي بعضهم رجلًا غيّر العالم نحو الأفضل، مبتكرًا ورجل أعمال مغامرًا لا يمكن قياس تأثيره الهائل في حياة البشر اليومية. لكنه في رأي غيرهم وثن مزيف، ورمز لكل ما هو خطأ، وتاجر مبالغ في إخفاء نياته ومقاصده. تعددت الآراء حول الرجل وتنوعت المواقف.

لكنه لم يكن دومًا بؤرة الاهتمام ومحط الانتباه. ففي الواقع كان ستيفن بول جوبز

الـذي ولـد في سان فرانسيسكو عـام 1955، قبل أن يتبنـاه ويربيـه بول وكلارا جوبـز، قد ترك الدراسـة الجامعيـة قبـل التخـرج، ووجـد أن فشلـه في الحصول على شهـادة التعليم العالي يعرقـل مسيرتـه في عـالم التجـارة التقانيـة. وفي نهايـة المطـاف عـثر على وظيفـة في شركة مبتدئة لألعاب الفيديو، أتاري إنك. Atari Inc.، وفي هذا الوقت تقريبًا التقى ستيف وزنياك.

كانت بداية صغيرة ومتواضعة: أسس جوبز ووزنياك وشريـك ثالث، رونالد وين، شركة آبل Apple عام 1976. وبعد سنة، أطلقت الشركة جهاز «آبـل2» (Apple II) ليحقق بعض النجاح، لكنها لم تبدأ الارتقاء فعلًا على الصعيدين الإبداعي والمالي إلا بعـد الإعلان الدعائي في أثناء مباراة بطولـة كرة القدم الأمريكيـة، وإطلاق حاسوب «ماكنتوش» عام 1984.

وفقًا للمعايير كلها، كان جوبز نابغة ألمعيًّا، لكنه مفكر إبداعي صعب، شخص تستحثه فكرة أن المنتج كلما كان أكثر بساطة في التصميم وسهولة في الاستخدام تحسن أداؤه وزادت جاذبيته. لكن أفكاره النيرة وآراءه المتحررة ومطامحه الكبار أجبرته في نهاية المطاف على الاستقالة من شركة آبل في خضم صراعات على السلطة بين المديرين من أعضاء مجلس الإدارة والمديرين التنفيذيين.

ترك جوبز الشركة عام 1985، وعند معاينة تاريخها الكامل تتكشف حقائق كثيرة من بداية جمودها الإبداعي وركودها الإنتاجي في غيابه، بينما تحولت المغامرتان الجديدتان اللتان قام بهما إلى ركيزة مؤسسة للسنوات الآتية في حياته.

في حالة بيكسار Pixar، ابتاع جوبز الشركة الصغيرة المختصة بفن الاتصالات البصرية والتابعة لشركة لوكاس فيلم Lucasfilm مقابل عشرة ملايين دولار، وباعها إلى ديزني Disney بعد أقل من عشرين سنة مقابل 7.4 مليار دولار. وفي أثناء ذلك، تمكنت الشركة من تطوير فن الرسوم المتحركة، بدءًا بفيلم «قصة دمية» Toy Story، ثم إطلاق فيلم ناجح طويل كل سنة تقريبًا.

في شركة نيكست كمبيوتر Next Computer، ستثبت رؤية جوبز الحالمة للحاسوب بوصفه أداة تعليمية أنها مكلفة إلى حد تعذر تطبيقها واستحالة نجاحها الجماهيري، لكن القوى التقنية للعتاد الصلب hardware والبرمجيات software كانت سابقة لعصرها وأوانها بسنوات،

وهذا ما اعترفت به شركة آبل نفسها وأدركته، حيث اشترت الشركة عام 1997 وأعادت إليها ستيف جوبز معها.

وهكذا بدأ التاريخ الذي يعرف سيره الجميع الآن: أتى أولًا حاسوب آي ماك IMac بتصميمه الفريد ذي القطعة الواحدة وألوانه المتعددة. ثم جهاز آي بود IPod، الذي قلب صناعة الموسيقى رأسًا على عقب، وكان علامة دالة على عصر جديد ونسق فريد لمبيعات الموسيقى الرقمية. ثم آي فون وآي باد IPhone & IPad، اللذان جسدا تنويعًا تفصيليًا ومطورًا على فكرة آي بود القائمة على سهولة الحمل والوصول والاستعمال والاستخدام، ليتجاوزا التوقعات كلها، ويعززا ميراث جوبز وانبعاث شركة آبل، وهذا فتحٌ مشهود لم يتوقعه قط كثير من الناس والمراقبين.

استعنتُ بحاسوب آي ماك لتأليف هذا الكتاب وإعداده، بينما أتت الرسائل النصية من جهاز آي فون الذي يهتز على الطاولة المجاورة، وتطبع صديقتي المخطوط على جهاز آي باد في غرفة الجلوس، ويتصل جهاز آي بود بموقع آي تيونز على خلفية الحاسوب. فوجئت بطباعة هذه الجملة وإعادة قراءتها، فقد وجدتها غريبة جعلتني أبدو مثل صبي متحمس ومهوّس في طائفة المولعين بمنتجات ماكنتوش. لكن تذكرت أمرين اثنين: أولًا، هناك جزء استثنائي كبير من حياتي اليومية يعتمد على منتجات أشرف على صنعها ستيف جوبز؛ وثانيًا، لا تنحصر حالتي الراهنة في حفنة مختارة من المولعين بالتقانات الحديثة والمحوسبة.

لا ريب في أن حياة الناس في شتى أرجاء العالم قد تغيرت (للأفضل أو الأسوأ مسألة مختلفة كليًا) مع ظهور التجربة المحوسبة الشخصية. حاول أن تحسب عدد الساعات التي تقضيها أسبوعيًا وأنت تستخدم الحاسوب، وتستمع إلى الموسيقى على جهاز رقمي، وتشغل الهاتف الذكي. لقد دفع ستيف جوبز العالم بالقوة، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، في اتجاه أراده ورغب فيه. ربما لم يكن المخترع لكل الأجهزة أو البرامج التي أصبحت ترتبط ترادفيًا مع ستيف جوبز. لكن تمثلت عبقريته في فهم ما أراده الناس وتوقعه قبل أن يعرفوا حتى بوجوده (هناك شواهد عدة في هذه المجموعة تنقل هذا المعنى الدلالي بالضبط).

قال هنري ديفيد ثورو (1817-1862): إنه أراد «العيش في عمق الحياة وامتصاص نسغها حتى آخر قطرة.. وإلحاق الهزيمة بكل ما يعاديها، وألا يكتشف حين يشرف على الموت أنه لم يعش». لم يستطع أحد كما هو واضح، حين استسلم ستيف جوبز أخيرًا لسرطان البنكرياس في عمر السادسة والخمسين، أن يسأل هل امتص نسغ الحياة حتى الثمالة أم لا. لقد استمر في قيادة آبل والبشرية نحو المستقبل حتى يوم وفاته تقريبًا. تمتع بالتفرد والخصوصية، بوصفه فردًا وشخصية عامة في شركة آبل. وربما لن يفاجأ أحد بحقيقة أن عدد المقابلات التي أجراها أو سمح بها منذ عام 1976 محدود جدًّا. لكن ما أثر فيّ، وآمل أن يترك انطباعًا فيك أيضًا، عزيزي القارئ، هو حجم المعاني الدلالية التي استطاع نقلها

في مثل هذه المدة الزمنية القصيرة. ويمكن لخطاب مباشرته العمل في جامعة ستانفورد عام 2005 أن يمثل نصًا أدبيًا مترعًا بالمعاني وحده.

ومثلما أشار كثيرون، من النادر أن تجد رجلاً يمثل الشخصية العامة لشركة إلى هذا الحد مثلما كان جوبز لآبل. وربما لهذا السبب شعر كثير من الناس بالخسارة الشخصية عندما سمعوا بخبر رحيله. لم يكن السبب ينحصر في طيبته الاستثنائية أو كرمه وسخائه (مثلما سترى إشارات تلميحية إلى ذلك في مختلف فصول هذا الكتاب). ولا لأن منتجات آبل كاملة الأوصاف مثالية الأداء (وستجد أنها ليست كذلك). ربما لأننا -جميعًا- اعتمدنا طوال السنوات العشر

الماضيـة على ستيف؛ ليبين لنا ماهية الخطوة اللاحقـة وشكلهـا، ويعلمنـا بوجهتنـا المقبلـة، وإلى مـا نحتاج إليه للوصـول إلى هناك. ربما لأننا -كلنا- مثـل الصبية المعجبين والمهوسين به في لاوعينا، بغض النظر هل أردنا الاعتـراف بهذه الحقيقة أم لا.

تراجعـت أسعـار أسهـم آبـل علـى الفـور (مؤقتًا) حين ذاع خبر وفاته، وأحب أن أعتقد، مـن منظـور رومانسـي، أن العـالم ترنـح، في لحظـة وجيزة، لكن موحـدة للمرة الأولى منذ عقد من السنين، وهـو يخطو خطواته الأولى في غيابـه، حيث شعر فجـأة بأنه غير واثق من المستقبل.

ألان كين توماس -*2011*